

النبي ﷺ واليهود في شمال الحجاز

7 - 9هـ / 628 - 630م

"قراءة نقدية"

المقدمة:

إن موضوع هذا البحث هو التعرف على طبيعة العلاقة بين النبي ﷺ واليهود في شمال الحجاز . أما منطقة شمال الحجاز التي ينحصر فيها البحث هنا فهي الجزء الواقع شمال المدينة، أي خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء وتبوك وأذرح والجرباء وأيلة ومقنا ومدين . والغاية من ذلك هي محاولة الوصول إلى الأسباب التي دفعت برسول الله ﷺ إلى الزحف نحو المستوطنات الشمالية التي تقطنها بعض الجماعات اليهودية وإخضاعها تحت سلطته.

ولذلك فإن الموضوع بطبيعته ينقسم إلى قسمين، القسم الأول : يناقش العلاقة بين صلح الحديبية وغزوة خيبر، وما نتج عنها من إخضاع فدك ووادي القرى وتيماء.

أما القسم الثاني: فيناقش مدى العلاقة بين غزوة تبوك وما أسفر عنها من اعتراف أيلة وأذرح والجرباء ومقنا بدولة المسلمين بالمدينة وإقرارها بدفع الجزية لها . حيث أصبح للمسلمين وللمرة الأولى حدوداً متاخمة للإمبراطورية البيزنطية الجاثمة حينذاك على بلاد الشام.

وفي حقيقة الأمر فإن هذه الدراسة الموجزة ليست الأولى في هذا

الموضوع بل ربما أن هناك أكثر من دراسة تتعلق بتاريخ الوجود اليهودي في شمال الحجاز في الجاهلية والإسلام . ومن أحدث الدراسات في هذا الباب، حسب علمي، هما: المستوطنات اليهودية على عهد رسول الله ﷺ . والدراسة الأخرى: الجماعات اليهودية في شمال غرب الجزيرة العربية¹ .

ولكن على الرغم من الجهد المبذول فيهما إلا أنهما تتصفان بالشمولية. ولم تبحتنا العلاقة بين النبي ﷺ، واليهود في شمال الحجاز بحثاً مفصلاً ولم نتحدثنا عما آلت إليه تلك العلاقة بين الطرفين . والمأمول من هذه الدراسة أن تقدم إجابة مقنعة عن هذه التساؤلات.

تمهيد:

العلاقة بين صلح الحديبية وغزوة خيبر :

لقد كان صلح الحديبية في أواخر سنة 6/هـ 627م . فاتحة عهد جديد لدولة الإسلام بالمدينة. إذ بدأ رسول الله ﷺ دعوته لزعماء العالم في ذلك الوقت إلى الإسلام² ، باعتباره الديانة السماوية الأخيرة، وأن محمداً ﷺ رسول الله إلى العالم كافة، وأن الدين عند الله الإسلام.

والأمر الثاني أو الثمرة الثانية والمباشرة للصلح مع قريش، هي توافر الأجواء الآمنة والمناسبة لتوسيع نفوذ دولة المدينة شمالاً نحو خيبر وما وراءها.

من المعلوم أن يهود خيبر بقيادة بعض زعماء يهود بني النضير الذين تم إجلاؤهم عن المدينة في السنة الرابعة من الهجرة 4هـ /625م قد حرضوا على قيام تحالف قبلي كبير هدفه القضاء على دولة الإسلام في المدينة. تـكـوـن هذا التحالف من قريش بزعامة سيدها أبي سفيان بن حرب، إضافة إلى قبائل غطفان وسُلَيم وفزارة وأشجع وبني مرة وغيرهم . بل

يقال إن يهود خيبر قد شرطوا ل غطفان بعض ثمر خيبر وتمرها إن اشتركوا معهم في قتال المسلمين.

وهكذا ففي السنة الخامسة من الهجرة 5هـ/626م فوجئت المدينة بجحافل الأحزاب تحاصرها وتضيق عليها الخناق، حيث جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً.

هذه المؤامرة الدينية التي حبكتها الأحزاب سجلها القرآن الكريم وصورها أبلغ تصوير في سورة عُرفت بسورة الأحزاب.

وبعد فشل التحالف القبلي أو الأحزاب كما هو معروف، قال رسول الله ﷺ: "الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم". وبالفعل فبعد غزوة الأحزاب لم تتعرض مدينة رسول الله ﷺ لغزو أو عدوان خارجي طيلة حياة رسول الله ﷺ.

إن يهود خيبر الذين حزبوا الأحزاب وجمعوهم على حرب المسلمين عادوا وحلفاؤهم إلى ديارهم يجرون أذيال الفشل والخيبة، ولم يجنوا خيراً. قال تعالى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» [الأحزاب: 25].

ولكن من يضمن عدم معاودة الأحزاب الكرة مرة أخرى، إذ أنهم لن يسكتوا على ما أصابهم من خزي وفشل! ثم إن خيبر التي حرصت الأحزاب وشاركت في العدوان، تقع على الطريق نحو الشام، وهو الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية ومنها قوافل المسلمين وهو النافذة الوحيدة نحو الشمال. لذا فإن هذا الطريق بالنسبة للمسلمين بالغ الأهمية؛ فقد أصبح من الضرورة بمكان تأمينه والقضاء على كل العوائق التي من شأنها أن

تحول بين المسلمين والشام.

وما من شك في أن صلح الحديبية بين النبي ﷺ وقريش قد جرد يهود خيبر من أهم وأقوى حلفائهم بالحجاز - أي قریش- . لذلك فقد شعر النبي ﷺ بأنه إزاء هذا الوضع الجديد أصبح طليق اليد في التوجه نحو خيبر للقضاء على خطرهما دون خوف من قریش أن تخالفه على المدينة . إذ جاء في بنود صلح الحديبية بين الطرفين أنهما : "اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ...".

لذلك فقد كان بين أسباب توجه الرسول ﷺ نحو خيبر هو معاقبتهم على تأمرهم ضد المسلمين في غزوة الأحزاب أو ما عرف بغزوة الخندق والأمر الثاني هو القضاء على مركز التآمر المتمثل في خيبر وتحرير طريق التجارة والمواصلات المتجه إلى الشام من أي خطر يشكله يهود خيبر وحلفائهم من القبائل العربية:

أ- غزوة خيبر:

إذا كانت مصادر السيرة النبوية قد اتفقت على أن غزوة خيبر حدثت في السنة السابعة من الهجرة؛ فإنها قد اختلفت أكانت الغزوة في أول السنة، -أي مباشرة بعد صلح الحديبية- أم أنها حدثت قبل منتصف العام أي في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها؟.

لا خلاف إذاً أن رسول الله ﷺ سار نحو خيبر في السنة السابعة من الهجرة 7هـ/628م على رأس جيش بلغ تعداده ألف وأربع مئة رجل تقريباً؛ وهم نفس الرجال الذين خرجوا معه يوم الحديبية . وربما إنضاف إليهم قليل من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ قال ﷺ: "لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا".

وبعد أن اكتمل استعداد المسلمين زحفوا نحو خيبر التي تبعد شمالاً عن المدينة نحواً من 160 كيلاً تقريباً، وقد استخلف رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

وأخيراً وصل رسول الله ﷺ إلى خيبر، فلم يفاجأ أهلها إلا جيش المسلمين يُطل عليهم صباح ذلك اليوم . جاء في رواية عند البخاري "أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رآه قالوا: محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين".

وذكر البخاري رواية عن أنس أيضاً يقول فيها : "كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يغز حتى يصبح. فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح، فنزلنا خيبر ليلاً".

وجاء في رواية عن سهل بن سعد؛ أن رسول الله ﷺ أعطى الراية يوم خيبر لعلي بن أبي طالب، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: "أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه . فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم".

وهكذا يتبين من هذه الروايات أن رسول الله ﷺ قد أعذر إلى أهل خيبر قبل أن يبدأهم بالقتال، فهو لم يقاتلهم ليلاً أي وهم غارون، بل انتظر حتى الصبح، وعندما لم يسمع الأذان في قريتهم، تأكد من عدم إسلامهم، فقاتلهم؛ ويظهر أن رسول الله ﷺ قد سبق وأن دعاهم إلى الإسلام قبل التوجه إليهم، وإلا فكيف يتوقع أن يسمع الأذان عندهم؟ بل أنه في إحدى

مراحل الحصار يوصي علي بن أبي طالب وهو يسلمه الراية بأن يعرض على يهود خيبر الإسلام أولاً قبل القتال.

ولكن يبدو أن الدعوة إلى الإسلام لم تلق أذاناً صاغية من لدن اليهود، فشرع بمحاصرة حصونهم الواحد تلو الآخر، وبعد بضعة عشر يوماً من الحصار والمنازلة كانت حصون خيبر قد سقطت جميعها في أيدي المسلمين ومن أشهرها حصون الشق والنطاة والسّلام والكتيبة.

وكانت حصيلة شه داء المسلمين خمسة عشر شهيداً، أما اليهود فقد قتل منهم قرابة ثلاثة وتسعين رجلاً تقريباً.

وقد اختلفت الروايات في تقدير عدد يهود خيبر من المقاتلين ف قيل إنهم عشرون ألفاً. وقيل عشرة آلاف. وقيل ألف وأربعمئة مقاتل. ويظهر أن الرقم الأخير لا يخلو من خطأ وقع فيه المؤلف، إذ ربما التبس عليه الأمر بين عدد جيش المسلمين، وعدد المدافعين عن خيبر من اليهود! والذي يبدو معقولاً من استقراء الروايات أن يهود خيبر بما فيهم المقاتلون ربما كانوا أقل من عشرة آلاف.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن ابن إسحاق وهو من أقدم ممن كتب عن غزوة خيبر لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى عدد سكان خيبر من اليهود ولا عن عدد المقاتلين منهم كذلك.

وأخيراً فقد صالح النبي ﷺ أهل خيبر على أن يحقن دماءهم، ولهم ما حملت ركابهم، وللنبي ﷺ الصفراء والبيضاء -أي الذهب والفضة- والحلقة وهو السلاح، وعلى أن يخرجوا من أرضهم.

وجاء عند الواقدي أن رسول الله ﷺ لما صالح أهل الكتيبة، أمّن

الرجال والذرية، ودفعوا إليه الأموال والصفراء والبيضاء والحلقة، والثياب، إلا ثوباً على إنسان.

ويبدو أن رواية تجريدهم من الذهب والفضة التي ساقتها بعض المصادر ومن ضمنها الواقدي في مغازيه غير دقيقة . أو في أحسن الأحوال أن مصادرة النقود من يهود خيبر لم تكن شاملة ومحكمة إذ أن الواقدي نفسه يذكر في روايته السابقة . "فلقد كان من اليهود حين أمَّتهم رسول الله ﷺ يُقبلون ويدُّبرون، ويبيعون ويشترون، لقد أنفقوا عامة المغنم مما يشرون من الثياب والمتاع، وكانوا قد غيبوا نقودهم وعين ما لهم".

وفي حديث أم عمارة، عن سقوط حصن الصعب بن معاذ وما عُرض فيه للبيع من المتاع، أشارت إلى أن من يشتري ذلك هم المسلمون واليهود الذين كانوا في حصن الكتيبة فأمنوا ومن حضر من الأعراب.

أما اليعقوبي، فقد قدم صورة قاتمة وغير دقيقة في تقريره عن فتح خيبر، إذ جاء فيه : " ... ثم كانت وقعة خيبر في أول سنة 7 هـ ففتح حصونهم وهي ستة حصون؛ السُّلام والنطاة والقصاراة والشق والمربطة والقموص، وفيها عشرون ألف مقاتل ففتحها حصناً حصناً، فقتل المقاتلة وسبى الذرية

وكما هو واضح في هذا التقرير الاختلاف في مسميات حصون خيبر من حيث عدم الدقة، وكذلك المبالغة في عدد المقاتلين من اليهود، والقول كذلك أن الرسول ﷺ قتل المقاتلة وسبى الذرية؛ فإن ذلك يوحى للوهلة الأولى أن الرسول ﷺ قد قضى على جميع المقاتلين وهم عشرون ألف وسبى جميع النساء والأطفال! أي بعبارة أخرى أن خيبر قد تعرضت على يدي الرسول ﷺ إلى مذبحه مروعة ذهب ضحيتها الرجال واستعبدت فيها

النساء والأطفال. وهذا مغاير لأخبار غزوة خيبر التي سبق وأن ذكر شيئاً منها.

وقد عمد أحد الدارسين المحدثين وهو القمني إلى لي عنق النص ليقول: "وانطلق السيف الإسلامي يعمل في المستسلمين، ليقتل منهم في قول ابن سعد ثلاثة وتسعين رجلاً من اليهود".

في الواقع أن هؤلاء الذين ذكرهم القمني، لم يكونوا مستسلمين بل سقطوا في ميادين القتال ضد المسلمين بعد أن أبدى بعضهم بسالة نادرة في الدفاع عن حصونهم. ولم يقل ابن سعد أنهم كانوا أسرى في يد المسلمين كما يزعم القمني. ولم يقتل رسول الله ﷺ صبراً من يهود خيبر سوى اثنين هما: كنانة بن أبي الحقيق، ورجل آخر من آل أبي الحقيق، وذلك لكذبهما على رسول الله ﷺ وإخفائهما كنز آل أبي الحقيق. ذلك بعد أن حلفا لرسول الله ﷺ أنهما قد أنفقا في الحروب، ووكدا الأيمان واجتهدا، فقال رسول الله ﷺ لهما: "برئت منكما ذمة الله وذمة رسوله إن كان عندكما! قالوا: نعم. ثم قال رسول الله ﷺ وكل ما أخذت من أموالكما وأصبت من دمائكما فهو حل لي ولا ذمة لكما! قالوا: نعم". وأشهد عليهما رسول الله ﷺ بعض كبار الصحابة وعشرة من اليهود. فلما عثر رسول الله ﷺ على الكنز الذي أخفياه أمر بهما فقتلا صبراً. وأضاف ابن سيد الناس أن رسول الله ﷺ سبى نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم للكنز الذي نكثوا.

أما بن إسحاق فبعد أن ذكر طرفاً من خبر كنز بني النضير- أي بني الحقيق- وكذب كنانة بن أبي الحقيق وإخفائه الكنز، أن رسول الله ﷺ سلمه إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة الذي قُتِلَ غيلة في خيبر، وفي السياق ذاته لم يذكر ابن إسحاق شيئاً عن سبي نسائهم

وذرا ريهم وقسمة أموالهم . ولكن ذكر أنه لما افتتح رسول الله ﷺ حصن القموص، أي حصن بني أبي الحقيق أتى بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، وأن رسول الله ﷺ حاز صفية لنفسه . وكان زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق قد أمر رسول الله ﷺ بقتله جزاء كذبه في أمر الكنز -أي مسك الجمل- الذي سبقت الإشارة إليه.

وقد وردت إشارة عند موسى بن عقبة ت : 141هـ تقلل من عدد سبايا خيبر من النساء؛ قال: "وسبا رسول الله ﷺ آل أبي الحقيق بما كانوا أعطوا من أنفسهم، وصفية بمكانها منهم، ولم يُسبَ أحدٌ من أهل خيبر غيرها فيما نعلم".

ولعل ما يلقي ظللاً من الشك على الرواية السابقة هو ما ذكره ابن إسحاق عن سبايا خيبر إذ قال : "وفشت السبايا من خيبر في المسلمين ". وأضاف قائلاً : "إن رسول الله ﷺ نهى يومئذ عن أربع؛ من بينها النهي عن إتيان الحبالى من السبايا ". وفي الوقت ذاته فإن المصادر المتاحة لا تسمح بإعطاء صورة واضحة عن سبايا خيبر من حيث عددهن وأثمانهن . ويمكن للباحث أن يفترض أن السبي قد وقع على قليل من النساء، بدليل سكوت المصادر عن إعطاء أي تفاصيل . ولا نجد عند الواقدي سوى إشارة لحالة واحدة من السبي منسوبة لأبي حرد الأسلمي.

ومجمل القول أن السبي والقتل الذي وقع على يهود خيبر لا يمكن مقارنته بأي حال بما قيل عن القتل والسبي الذي تعرضت له قبيلة بني قريظة اليهودية في المدينة سنة 5هـ/626م. وهذا على الأقل ما توحى به الروايات عن كلتا الحادثتين. وإذا ما تركنا موضوع سبايا خيبر جانباً، فإن يهود خيبر لما سقطت حصونهم وأيقنوا بالهلكة، سألوا رسول الله ﷺ أن يسيرهم ويحقن دماءهم، فقبل . ثم إن أهل خيبر سألوا رسول الله ﷺ أن

يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا : "نحن أعلم بها منكم، وأمر لها"، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، "على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم". وهذا الصلح يتضمن أن للمسلمين نصف محصول التمر والحبوب كل عام وللإهود نصفها الآخر لقاء قيامهم بالعمل فيها.

وقد أصاب أحد الباحثين المحدثين في تقييمه لغزوة خيبر والنتائج التي أسفرت عنها إذ قال: "كان لانتصار المسلمين في خيبر أهمية خاصة، فقد ترتب عليه أن أصبح لدولتهم الناشئة أراض مملوكة خارج المدينة، يجبون منها الخراج. كما أدى إلى وجود جماعة من الإهود يشملها السلطان السياسي للدولة الإسلامية. وهكذا وجد بتلك الدولة لأول مرة أهل ذمة. وقد سُمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم، ويستغلوا أراضيهم وفق الشروط التي تؤخذ عليهم".

على كل، بعد فتح خيبر وإبرام الاتفاق مع أهلها غادرها رسول الله ﷺ بعد أن تزوج من صفية بنت حيي بن أخطب أحد زعماء إهود بني النضير الذين استقروا في خيبر بعد إجلاءهم من المدينة في السنة 4هـ/625م.

وليس من المستبعد أن زواج الرسول ﷺ من صفية كان محاولة صادقة منه لتطبيب خواطر إهود خيبر والرفع من معنوياتهم بعد الهزيمة التي حاقت بهم، إذ أصبحوا منذ الآن أصحاب رسول الله ﷺ، كما أصبحت ابنتهم إحدى أمهات المؤمنين.

وقد ربط بعض المستشرقين بين صلح الحديبية 6هـ/627م، وغزوة خيبر 7هـ/628م، فبعضهم جعل من صلح الحديبية وكأنه غاية في حد ذاتها لينتفرغ الرسول ﷺ لغزو خيبر، وبمعنى آخر أن النبي ﷺ ذهب إلى

الحديبية قريباً من مكة ليبرم صلحه مع قريش من أجل المواجهة مع اليهود في خيبر. ومن هؤلاء على سبيل المثال: إسرائيل ولفنسون إذ قال : "ولكي يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى، فقد توجه إلى مكة في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة وتصلح مع قريش". ومن اللافت للنظر أن محمد حميد الله عندما تطرق إلى صلح الحديبية قال: أن رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية أصبح طليق اليدين مع الخطر المتنامي في خيبر، حيث أن المكيين في ذلك الصلح قد وافقوا على أن يقفوا على الحياد في حالة هجوم المسلمين على طرف ثالث كخيبر مثلاً.

وفي واقع الأمر، فإن نص صلح الحديبية في مختلف المصادر لم يتعرض لا من قريب ولا من بعيد لأمر خيبر، وليس في نصوصه ما يتضمن أن تقف قريش على الحياد في حالة هجوم المسلمين على طرف ثالث.

أما الفريق الثاني من المستشرقين، فقد خلطوا إما عن جهل، أو عن عمد بين الصلح والغزوة ومن هؤلاء مثلاً: مكسيم رودنسون M. Rodinson، إذ قال في حديثه عن أسباب غزوة خيبر "... وأكثر من ذلك كان من الضروري بالنسبة لمحمد أن يبحث عن متنفس لطاقة المسلمين الذين حرموا من غنائم الحديبية بأن يتوجه بهم نحو خيبر، حيث أن خيبر تشتهر بثروتها الزراعية مثلها مثل المدينة ...".

ومنتغمري واط M. Watt، مثله مثل رودنسون، فهو عندما تحدث عن غزوة خيبر، جعل أحد أسبابها فشل [كذا] النبي ﷺ في حملة الحديبية غزوة، ورغبته في تعويض أصحابها عنها بغنائم خيبر الذين أصيبت آمالهم بالفشل في الحديبية . وهو قول يفتقر للمنطق، فإنه من المعلوم أن

الحديبية لم تكن غزوة، بل مكاناً للصلح بين النبي ﷺ وقريش عندما اعترضتهم في الحديبية قرب مكة، ومنعتهم من أداء الع مرة أبرم الصلح بين الطرفين الذي استمرت المفاوضات بشأنه أكثر من عشرين يوماً.

كذلك فقد نظر كارل بروكلمان C. Brocklmann إلى ما حدث في الحديبية على أنه فشل، حيث قال : "... وفي سنة 628م حاول النبي أن يعوض عن فشله الظاهري في الحديبية، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر ...".

على كل، بغض النظر عن رأي بروكلمان، فإن الذي يجب التأكيد عليه هنا هو أنه لا يوجد في حقيقة الأمر شيء اسمه غزوة الحديبية، لأنه لم يحدث في الحديبية غزوة على الإطلاق، وأن النبي ﷺ عندما ذهب إلى مكة في أواخر السنة السادسة للهجرة ذهب معتمراً، ولما اعترضت قريش سبيله كان الصلح بين الطرفين في مكان يعرف بالحديبية. فأين الفشل الذي أشار إليه بروكلمان؟

بل على النقيض من ذلك، فإن صلح الحديبية يعد نصراً مؤزراً للمسلمين. وقد أشار إليه القرآن الكر يم بالفتح المبين، قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح: 1-2]. وبالعودة إلى غزوة خيبر والهدف منها، فقد أشار إلى ذلك إسرائيل ولفنسون بالقول: "... لما كان الغرض الذي يرم ي إليه الرسول إنما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم، فكان عليه في هذه الحال أن يقضي على يهود خيبر، حتى لا يكونوا حجر عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض". وفعلاً فقد تحقق ذلك الغرض، أو الهدف، ولكن الرسول ﷺ لم يقض على يهود خيبر، بل جردهم من قوتهم التي كانوا من خلالها مصدر خطر يهدد السلم في منطقة الحجاز.

ومما لا شك فيه أنه بعد القضاء على الخطر اليهودي الذي كان ماثلاً في خيبر أصبح الطريق أمام الدعوة إلى الله وتوحيد شمال الحجاز تحت راية الإسلام مفتوحاً. لذلك كان لابد من إخضاع بقية المستوطنات الواقعة شمال خيبر مثل فدك ووادي القرى وتيماء، حيث كانت تمثل خطراً وشيكاً على إنجاز المسلمين في خيبر، لابد من التعامل معه بما يتناسب مع خطورته، وقد كانت فدك القريبة من خيبر أولى المستوطنات التي تعامل معها الرسول ﷺ.

1- فدك:

قرية تقع شرقي خيبر على وادي يذهب سيله شرقاً إلى وادي الرمة تعرف اليوم بالحائط. وحسب ما جاء عند الحميري فإن أهل فدك قد صالحوا النبي ﷺ على النصف من ثمارها في سنة 6هـ وكانت له خالصة.

ويظهر من بعض الروايات أن ما جاء عند الحميري لم يكن دقيقاً، فربما أنه خلط بين أحداث السنة السابعة للهجرة والسنة السادسة، فقد جاء عند الواقدي، قالوا: "لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث مُحبيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ... قال مُحبيصة: فأقبل معي رجل منهم يقال له نون بن يوشع في نفر من اليهود صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويجلبهم ويخلوا بينه وبين الأموال، ففعل؛ ويقال عرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبي ﷺ شيء وإذا كان جذاذها جاؤوا فجزوها، فأبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك منهم ... فوقع الصلح بينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها ولرسول الله ﷺ نصفها فقبل ذلك منهم". وأصبحت فدك فيئاً خالصاً لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

ولكن يظهر أن بني مُرة الذين كانوا يعيشون في فدك جنباً إلى جنب مع اليهود قد أظهروا شيئاً من العداوة تجاه المدينة أو ربما صدر منهم ما ينبئ عن ذلك، فبعث لهم رسول الله ﷺ في شعبان سنة 7هـ أي بعد فتح خيبر، بشير بن سعد على رأس سرية تعدادها ثلاثون رجلاً، ولكن المريون هزموهم، حتى أن أمير السرية بشير بن سعد أصيب بجراح كثيرة حتى ظن أصحابه أن قد مات .. لكن تحامل على جراحه إلى فدك وأقام عند يهودي بها أياماً ثم رجع إلى المدينة.

وبعد ستة أشهر من هذا العنكسة التي أصيبت بها سرية بشيربعث رسول الله ﷺ حسب رواية الواقدي -غالب بن عبدالله الليثي للثأر لمصاب بشير وأصحابه في فدك وذلك في صفر سنة 8هـ/629هـ وأوصاه رسول الله ﷺ قائلاً: "فإن أظفرك الله بهم فلا تُبق بهم". أي لا تبق فيهم على أحد . والمحصلة النهائية لهذه الحملة التأديبية هي بعض القتلى من بني مرة إضافة إلى مصادرة بعض الإبل والماشية، والرواية في الوقت نفسه لم تذكر شيئاً عن خسائر المسلمين.

على كل، فإنه ليس من المستبعد أن يكون حدث لبس في أمر هذه السرية وأخرى حدثت في السنة نفسها والشهر نفسه أي صفر وأمير السرية هو غالب بن عبدالله الليثي إذ انتدبه رسول الله ﷺ إلى الكديد.

والسؤال هنا هل من الممكن أن ينتدب غالب في مهمتين في شهر واحد؟ أليس هناك من يقوم مقامه من أصحاب رسول الله ﷺ؟ سيما وأن رسول الله ﷺ سبق وأن رشح الزبير بن العوام لسرية فدك، ولكن بعد أن عاد غالب من مهمة الكديد مظفراً، قال رسول الله ﷺ للزبير: "إجلس" وبعث غالب بدلاً عنه. يظهر أن الأمر لا يخلو من إشكال! خلاصة القول أن يهود فدك ظلوا على الوفاء لعهدهم مع رسول الله ﷺ حتى خلافة عمر

بن الخطاب الذي قام بحملة إجلاء شبه كاملة لليهود خيبر وفدك.

2 - وادي القرى:

"وادي القرى، يعرف اليوم بوادي العلا : مدينة عامرة شمال المدينة على قرابة

350 كيلاً، كثير المياه والزرع والأهل ... وقد قامت فيه - أي الوادي- مدينة العلا مكان "فُرح" وكانت سوقاً من أسواق العرب".

وفي حديث البكري، عن وادي القرى قبل الإسلام، قال : "وكان أهل وادي القرى وما والاها اليهود يومئذ، كانوا نزلوها ... فاستخرجوا كضائمتها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها وجنانها، فعقدوا بينهم حلفاً وعقدًا [أي بين اليهود وقبائل سعد هُذيم- قضاة] وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام، ومنعوها لهم من العرب ...".

ويظهر أن أمر وادي القرى ظل على تلك الحال حتى كانت غزوة خيبر، إذ بعد أن وقعت خيبر بيد المسلمين وتلتها فدك، كان لا بد من استكمال السيطرة على بقية المستوطنات الشمالية، فكان وادي القرى هو الهدف التالي إذ جاء عند ابن إسحاق قوله : "فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمر خيبر، انصرف إلى وادي القرى، فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعاً إلى المدينة".

وكما هو ظاهر فإن رواية ابن إسحاق في غاية الغموض والاختصار ولا تنبئ عن شيء ذي أهمية بخصوص استيلاء النبي ﷺ على وادي القرى! وعلى النقيض من ذلك فإن الواقدي قدم بهذا الخصوص معلومات أكثر أهمية وتفصيلاً فقد جاء لديه عن الاستيلاء على وادي القرى، أن

رسول الله ﷺ أقام بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها، على نحو ما عامل أهل خيبر.

ويظهر من إحدى الروايات أن رسول الله ﷺ أصبح على علاقة طيبة مع بعض الأسر اليهودية في وادي القرى، ففي طريقة إلى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مر على وادي القرى فأهدى له بنو عريض اليهودي هريساً، فأكلها رسول الله ﷺ وأطعمهم أربعين وسقاً فهي جارية عليهم.

ونقل ابن سعد نسخة عن الكتاب الذي تضمن طعمة رسول الله ﷺ لبني عريض، جاء فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني عريض، طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمحاً، وعشرة أوسق شعيراً في كل حصاد، وخمسين وسقاً تمرّاً، يوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئاً". ومن الكتاب يتبين أن الطعمة لم تكن فقط أربعين وسقاً كما ذكر الواقدي وقد علقت إحدى نساء اليهود على طعمة رسول الله ﷺ لبني عريض بقولها : "هذا الذي صنع بهم محمد خير مما ورثوه من آبائهم؛ لأن هذا لا يزال جارياً عليهم إلى يوم القيامة".

وقد بقى اليهود في وادي القرى حتى بعد إجلاء يهود خيبر وفدك في عهد عمر بن الخطاب، لأن وادي القرى خارج عن الحجاز كما قيل!

ويتحدث المقدسي في القرن الرابع الهجري، عن وادي القرى، فيقول : "ناحية فُرح : تسمى وادي القرى، وليس بالحجاز اليوم بلدٌ أجل وأعمر وأهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة من هذا ... والغالب عليها اليهود ..". ونتيجة لإخضاع الرسول ﷺ خيبر ثم فدك وأخيراً وادي القرى، فإنه لم يبق أمامه في ذلك النطاق الجغرافي سوى تيماء، التي

اختلفت المصادر في وقت خضوعها لدولة المدينة.

3 - تيماء:

تيماء بالفتح والمدّ: بُليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق . والأبلىق الفرد حصن السموأل بن عاديا مشرف عليها، فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي . وتيماء اليوم مدينة مزدهرة تقع على الطريق الدولي الواصل بين المدينة والشام مروراً بتبوك.

وجاء في بعض المصادر المتقدمة، أنه لما بلغ يهود تيماء، ما وطئ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم.

ويضيف المسعودي، أن أهل تيماء كانوا أعداءً لرسول الله ﷺ، ورؤساؤهم آل السموأل بن عاديا، فلما بلغهم ما نزل بأهل وادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على أداء الجزية، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة. وجاء عند ابن الأثير أن رسول الله ﷺ كتب ليهود تيماء : "أن لهم الذمة وعليهم الجزية بلا عداء ...". والإشكال الذي يحيط بهذا العهد أنه لا يبيّن متى كانت كتابته ! وعلى كل، يلاحظ أن اثنتين من الروايات التي دُكرت أعلاه قد ربطت بين إخضاع وادي القرى وصلاح تيماء، أي أن تيماء أصبحت خاضعة لسلطة دولة الم دينة إعتباراً من السنة السابعة للهجرة؛ بينما الرواية الثالثة اكتفت بذكر نص العهد الذي أعطاه رسول الله ﷺ ليهود تيماء دون الإشارة إلى وقت كتابته ! أي هل كتب في السنة السابعة أم بعدها؟ وعلى النقيض من ذلك؛ فإن بعض المصادر قد ربطت بصورة مباشرة بين غزوة تبوك وصلاح تيماء! فقد جاء عند موسى بن

عقبة أن أكيدر ويحنة، اجتمعا عند رسول الله ﷺ فدعاهما إلى الإسلام فأبيا، "فأقرا بالجزية، فقاضاهما رسول الله ﷺ قضية دومة، وعلى تبوك وعلى أيلة، وعلى تيماء، وكتب لهما كتابًا".

ولدى البيهقي ت: 458 هـ رواية قريبة الشبه بالرواية السابقة لكن دون الإشارة إلى تيماء، جاء فيها: وأقبل خالد ﷺ بأكيدر إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه يحنة بن روبة عظيم أيلة، فقدا على رسول الله ﷺ وقاضاهما على قضية دومة وعلى تبوك وعلى أيلة، وكتب لهما كتابًا.

أما ياقوت الحموي ت: 626 هـ فجاء لديه: "ولما بلغ أهل تيماء في سنة 9هـ/630م وطئ النبي ﷺ وادي القرى أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية وأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم".

يظهر من التدقيق في مضمون هذه الروايات الثلاث الأخيرة؛ أن الروايتين الأخيرتين منهما . أي رواية - البيهقي وياقوت- هما روايتان معدلتان عن رواية موسى بن عقبة، بم عنى أن أساسهما رواية موسى ابن عقبة . ولا تخلوا كل من رواية ابن عقبة والبيهقي من الاضطراب وتصحيف بعض الأسماء وتداخل بعض الأحداث فيهما ! لكن الرابط الوحيد بين الروايات الثلاث مجتمعة، هو إجماعها على أن تيماء ظلت في عزلة عن أحداث السنة السابعة من الهجرة ولم ت تأثر بها وأنها لم تدخل تحت سلطة دولة النبي ﷺ بالمدينة إلا في أواخر السنة التاسعة من الهجرة، وكان ذلك جاء نتيجة لغزوة تبوك؛ وهذا أمر لا يخلوا من إشكال.

والإحتمال الأقوى أن تيماء قد دخلت تحت سلطة المدينة في السنة السابعة للهجرة أي نتيجة لإخضاع خيبر وفدك ووادي القرى، فقد حذت تيماء حذو تلك البلدان وأعلنت صلحها مع النبي ﷺ.

ويبقى أمر الجزية التي فرضت عليها مثاراً للتساؤل؟ حيث أنه لا جدال في أن تشريع الجزية قد جاء في السنة التاسعة من الهجرة أي في أثناء غزوة تبوك.

لذلك فإن مسألة خضوع تيماء وإقرارها بالجزية في السنة السابعة يدعو للشك. إذ كيف تُقر تيماء للمسلمين بالجزية على حين أنه لم يرد في صلح خيبر وفدك ووادي القرى أي إشارة للجزية حيث اقتصر الأمر على مشاطرة المسلمين لأهل هذه البلدان نصف الثمرة . فلماذا اختصت تيماء بالجزية دون غيرها؟ وإذا كان أمر جزية تيماء صحيحاً وأنه لم يكن هناك لبس في الروايات، فالاحتمال الوحيد هنا ربما أن دخول تيماء في الصلح كان متأخراً عن السنة السابعة للهجرة، ولعله في أثناء غزوة تبوك أو بعدها بقليل حيث كان تشريع الجزية . ولكن لعل ما يقلل من قيمة هذا الاحتمال هو أن ابن إسحاق الذي قدم تفاصيل دقيقة عن غزوتي خيبر وتبوك لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى تيماء وما قيل عن الجزية المفروضة عليها.

لذلك فعمل أقرب الإحتمالات أن تيماء دخلت في صلح خيبر وفدك ووادي القرى في السنة السابعة للهجرة ولم تفرض عليها جزية بل شملها صلح خيبر وما جاورها من البلدان حيث أن الجزية كما سبقت الإشارة كانت في غزوة تبوك أي في السنة التاسعة.

وجملة القول أن إستيلاء المسلمين على خيبر وما نتج عنه من خضوع كل من فدك ووادي القرى وأخيراً تيماء قد أسفر عن دخول نصف شمالي الحجاز تقريباً تحت سلطة دولة الرسول ﷺ في المدينة. وبعد سنتين من هذا الإنجاز كان التحرك الأخير نحو تبوك في السنة

التاسعة وما تحقق جراء ذلك من السيطرة التامة على شمالي الحجاز بكاملة وبذلك امتدت سلطة دولة الرسول ﷺ إلى تخوم الإمبراطورية البيزنطية كما سيتبين في الصفحات التالية.

ب- غزوة تبوك:

تبوك : موضع بين وادي القرى والشام وقال أبو زيد : تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر ... وهو حصن به عين ونخل وحائط.

وتبوك اليوم مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسة، وهي تبعد عن المدينة شمالاً نحو 778 كيلاً على طريق معبدة تمر بخيبر وتيماء ...

وتجمع المصادر التاريخية أن غزوة تبوك وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة 9هـ/630م، وعرفت هذه الغزوة بغزوة العُسرة . وقد أشار القرآن الكريم إلى العُسرة بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ التوبة 117 أي كان المسلمون في ضيق وشدة وعسر في النفقة والظهر والزاد والماء.

وغزوة تبوك من الغزوات المشهورة التي نزل فيها قرآنٌ، حيث نزلت بشأنها سورة التوبة، التي أشادت بمواقف المسلمين في تلك الساعة العصيبة وفضحت مواقف المتشككين من المنافقين وتخذيلهم للمسلمين . لذلك عرفت سورة التوبة بالفاضحة، لأنها فضحت المنافقين.

وينقل لنا ابن إسحاق صورة عن الجو العام بالمدينة الذي أحاط بغزوة تبوك قائلاً: "أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عُسرة الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد؛ وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص

على الحال من الزمان الذي هم عليه؛ وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشُّقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم".

في هذا الجو العام من الشدة والضيق ورغبة الناس من أهل المدينة في البقاء إلى جانب نخيلهم ومزارعهم سيما وأن الوقت هو موسم جني الثمار؛ في هذا الوقت، يعلن النبي ﷺ النفير العام والتجهز لغزو الروم، ويحث الناس على الحملان والنفقة، استجابة لأمره تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ التوبة 41 فاستجاب المؤمنون لنداء الله والرسول، وأخذوا بالجهاز للغزو على الرغم من بعد المسافة وقلة ذات اليد. حتى أن النساء نافسن الرجال في البذل السخي من أجل تجهيز جيش العسرة.

قالت أم سنان الأسلمية: "لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسك ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم، مما يبعث به النساء يُعن به المسلمين في جهازهم ...".

وكذلك تبارى الرجال فيما بينهم في النفقة والحملان، ويظهر أن أكثر الناس نفقة في تجهيز غزوة تبوك كان عثمان بن عفان حيث أجمعت الروايات على ذلك، ولكنها اختلفت في مقدار نفقته في ذلك اليوم. وتحدثت المصادر كذلك عن عدد ذلك الجيش، واختلفت في تقديراتها ما بين ثلاثين ألفًا وسبعين ألفًا!. ومما يلفت النظر بخصوص هذه التقديرات أن بعض المصادر المتقدمة مثل: موسى بن عقبه وكذلك ابن إسحاق، لم يذكر شيئًا عن عدد الجيش!.

ويظهر أن الواقدي هو أول من ذكر عدد الجيش في موضعين من مغازيه، ومن ثم تبعه بقية المؤرخين. فقد جاء في إحدى روايات الواقدي أن زيد بن ثابت سئل كم كان المسلمون في غزوة تبوك؟ فقال : "ثلاثون ألفاً". وفي حديث الواقدي عن غزوة تبوك وعدد المسلمين فيها قال بصيغة الشك "قالوا : وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً...".

والواقدي كما يتضح من روايته الأخيرة لم يذكر مصدرًا يمكن الإعتداد به، أما رواية زيد بن ثابت عن عدد المسلمين يوم تبوك فمن الصعب الأخذ بها دون تحوط، إذ أنه لم يذكر الكيفية التي تم من خلالها معرفة وضبط عدد المسلمين في تلك الغزوة.

لذلك وحيث أن الواقدي هو المصدر الوحيد فيما يبدو الذي ذكر عدد المسلمين في غزوة تبوك ولأن الروايتين اللتين ساقهما تفتقران للدقة، فليس من الصواب التسليم بهما دون تحفظ . ولهذا فيمكن القول أن عدد المسلمين في تلك الغزوة لا يخلو من مبالغة. ولعل مرد الشك في هذا العدد هو أن عدد المسلمين الذين شاركوا في فتح مكة كانوا عشرة آلاف . وكانوا في غزوة حنين 8هـ/629م اثني عشر ألفاً بعد أن انضاف لهم الفان من أهل مكة.

ولهذا فإنه ليس من السهل جمع ثلاثين ألفاً في أقل من سنة للسير بهم نحو الروم . لذلك فإن من المحتم ل أن جيش العسرة كان أقل بكثير مما تشير إليه روايات الواقدي . سيما وأن الناس كانوا في ضيق وجهد وفي عُسرة من النفقة والزاد، حتى أن البعض من المسلمين في تلك الغزوة كانوا "يَمْصُونَ النوى ويشربون عليه الماء".

ويقدم القرطبي صورة أشد قتامة عن حال المسلمين في ساع
العُسرة، وقد نقلها بسنده عن الحسن، قال : "كانت العُسرة من المسلمين
يخرجون على بعير يعتقدونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس والشعير
المتغير والإهالة المنتنة، وكان نفر يخرجون ما معهم - إلا التمرات-
بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعامها، ثم
يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جُرعة من ماء كذلك حتى تأتي على
آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة...".

هذه الصورة على شدة قتامتها إلا أنها تحمل في طياتها شيء من
المبالغة، إذ ما عسى ثمرة واحدة تلوكلها أفواه نفر من الناس ويشربون
عليها من الماء ثم تكفيهم الجوع والمسغبة ! ثم ما أثر ذلك على صحتهم
وما يترتب عليه من انتشار الأمراض المعدية بينهم؟

لقد جرى الاستشهاد برواية القرطبي السالفة للتدليل فقط على مدى
صعوبة تجريد جيش بهذا الحجم ليقطع مسافة طويلة - ربما أنها أطول
وأبعد مسافة- قطعها رسول الله ﷺ بجيشه منذ بدأ نشاطه الجهادي، وهذا
الجيش يعاني ما يعانيه من شدة الجوع وسوء التغذية. لذلك فلا بد أن الأمر
يختلف شيئاً ما عما تناقلته الروايات السابقة . أي ربما أن الأمور أكثر
إشراقاً مما قدمته روايات البيهقي والقرطبي.

وإذا ما تركنا جانباً أمر عدد المسلمين في غزوة تبوك وكأي غزوة
العُسرة، والأحوال المعيشية التي رافقت ذلك جانباً، فإن السؤال الأكثر
إلحاحاً هو: ما سبب الغزوة؟ إن المصادر المتاحة أمام البحث تقدم إجابات
مختلفة فموسى بن عقبة وابن إسحاق وهما من المؤرخين المتقدمين كما
هو معروف يكادان يتفقان على إجابة واحدة تقريباً وهي أن رسول الله ﷺ
خرج يريد الشام وكفار العرب.

أما الواقدي فلدیه سبب أكثر وجاهة وهو أن الأنباط الذین يتاجرون بین الشام والمدینة، ذکروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه بعض القبائل العربیة، مثل لخم وجذام وغسان وعاملة، وأن مقدمة جيشهم زحفت لتقاء البلقاء وعسکروا بها ... ولم یکن من ذلك شيء، إنما قیل لهم فقالوه . ویذکر الیعقوبی سبباً لغزوة تبوک بعید الاحتمال، وهو أن رسول الله ﷺ سار فی جمع كثير إلى تبوک من أرض الشام یطلب بدم جعفر بن أبی طالب.

والدلیل على تفرد الیعقوبی بهذا القول أن لا أحد من المؤرخین المتقدمین ولا المتأخرین شاطره هذه المعلومة . والبیهقی یذکر أن سبب خروج الرسول ﷺ إلى تبوک أن الیهود أتوه يوماً وقالوا له : یا أبا القاسم ! إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدّق ما قالوا فغزا غزوة تبوک لا یرید إلا الشام ...

وهذا سبب ظاهر التهافت حیث أن لرسول الله ﷺ من الحکمة ونفاذ البصيرة ما یمنعه من الانسیاق وراء استقزازات الیهود ومکرهم . ومن المستبعد جداً أن یجرد الرسول ﷺ مثل هذا الجيش الكبير فی مثل تلك الظروف الصعبة استجابة لمقولة یهود لیثبت لهم أنه نبي فحسب.

أما ابن كثير فإنه یعزو سبب الغزوة إلى تکلیف إلهی لا خيار للنبي ﷺ فیهِ. قال: "لما أنزل الله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة 29

ندب رسول الله ﷺ أهل المدینة ومن حولهم من الأعراب على الجهاد وأعلمهم بغزو الروم . ثم یضيف ابن كثير إلى ما سبق موضعاً سبب

الغزو: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله. وهكذا فإن كثير يرى أن سبب الغزوة هو قتال الروم امتثالاً لأمر الله.

ويعلق أحد الدارسين المحدثين على رأي ابن كثير قائلاً : "الصحيح إنها استجابة طبيعية لفريضة الجهاد وقد نبه على ذلك الحافظ ابن كثير بقوله: فعزم على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه ...". ولكن لعل ما يوهن هذا الرأي هو أن الوقت لم يكن مناسباً للخروج على رأس جيش كبير في سنة مجدية "ساعة العسرة" وكان من الأفضل اختيار وقت أكثر مواءمة لأحوال الناس، والذي يتبين من بعض الروايات أن خروج الرسول ﷺ إلى تبوك كان اضطرارياً لا خيار له فيه حيث أنه استشعر خطر الروم وأنهم مهاجموه لا محالة لذلك قرر أخذ زمام المبادرة لدرء الخطر عن دولته الناشئة، ونقل المعركة إلى ارض العدو.

لذلك فإنه لما وصل إلى تبوك وأقام بها نحواً من عشرين يوماً ولم يجد ما يشير إلى خطر الروم الوشيك على دولته . وأن الخبر الذي جاءه عن تحرك الروم نحو أدنى الشام كان خبراً باطلاً، وأن هرقل لم يُرد ذلك ولم يهم به. شاور النبي ﷺ أصحابه في التقدم نحو الشام . فقال عمر بن الخطاب : "إن كنت أمرت بالمسير فسر !" فقال ﷺ: "لو أمرت به ما استشرتكم فيه".

وهكذا فلو كانت غزوة تبوك امتثالاً لأمر إلهي حسب منطوق الآية

الكريمة

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية "وأن المقصود بهم الروم لما تردد النبي ﷺ لحظة واحدة في المسير إليهم ومقاتلتهم. لذلك فإن مثل هذا القول ينقضه قول الرسول ﷺ: "لو أمرتُ به ما استشرتكم فيه" وأمام هذا الوضع

قرر العودة إلى المدينة.

ومجمل القول في سبب غزوة تبوك أنها ربما تعود إلى الشائعات التي أشاعها التجار الأنباط بين الناس في المدينة وهي أن الروم يستعدون لغزو بلاد المسلمين . ويظهر أن الأنباط قد كلفوا بنقل هذه الأخبار الكاذبة لزعة أمن المسلمين وإثارة الرعب في نفوسهم . ويعلق الواقدي على ذلك بالقول: "أي ربما أن الروم أوعزوا للأنباط بنقل هذه الأخبار الكاذبة".

وتبقى المعلومات عن تبوك شحيحة للغاية، وليس لدينا شيء مؤكد سوى مسمى تبوك، فهو حسب بعض المصادر الموثوقة مسمى قديم لا علاقة له بغزوة العسرة. إذ جاء عند الإمام مالك بسنده عن معاذ بن جبل في حديثه عن غزوة تبوك أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم ستأتون غداً إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار...".

ولأن الماء متوافر في تبوك، فليس بالمستغرب أن تكون ذات نخل، فحين كان رسول الله ﷺ يخطب في أصحابه، كان مسنداً ظهره إلى نخلة من نخلهما. ويظهر أن تبوك حينذاك كانت أهلة بالناس، فقد أعطى رسول الله ﷺ تمرات كانت بيده لأحد الصبيان حين طلع عليهم . وربما أن الجبنة التي قدمت للنبي ﷺ وأصحابه في تبوك، كانت هدية من بعض أهلها.

أما الإتصال المباشر بين النبي ﷺ وأهل تبوك فليست لدينا عنه فكرة واضحة، سوى ما جاء عند البلاذري من أن النبي ﷺ فرض الجزية على أهل تبوك.

وإن كانت هذه المعلومة دقيقة فهي لا تفيد بشيء واضح ح عن ديانة أولئك القوم أيهوداً هم أم نصارى؟ أم غير ذلك؟ ومما يلف خبر البلاذري بالغموض والشك، هو أن نصوص مصالحة النبي ﷺ لأهل بلدان شمال

الحجاز قد وصلت إلينا كاملة تقريبًا ما عدا تبوك!!

ولذلك فإن معلوماتنا عن تبوك تظل ناقصة، وتظل رواية البلاذري حول جزية أهل تبوك محوطة بالشك؛ سيما وأن البلاذري لم يذكر مصدر روايته، بل استهل الخبر بعبارة "قالوا" ومعلوم أن هذه الصيغة، صيغة تمريض لأنها لا توحى بالثقة في مثل هذا الخبر.

ولا يتوافر للبحث معلومات يمكن الإطمئنان لها بخصوص أصل سكان تبوك، وعلى الرغم من ذلك فليس من المستبعد أن تكون بعض بطون قضاة، أحد عناصر السكان الرئيسة.

ومما هو جدير بالاهتمام أن غزوة تبوك لم تكن دون نتائج ملموسة، إذ أنها حققت نتائج في غاية الأهمية ولم تكن بالحسبان في أول الأمر . إذ إن عددًا من مستوطنات شمال الحجاز قد اعترفت بدولة النبي ﷺ بالمدينة وانضوت تحت لوائها ويأتي على رأس تلك المستوطنات أيلة.

1 - أيلة: "مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام؛ وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام ... وهي مدينة لليهود وبها في يد اليهود عهد لرسول الله ﷺ".

وقد اختلف في موضعها الآن؛ فقد قيل أنها العقبة أي مدينة العقبة الأردنية الواقعة على طرف الخليج المعروف بخليج العقبة المتفرع من بحر القلزم. ولكن جاء في أحد المصادر المتقدمة أن اسمها ويلة : "وهي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك، فرضة فلسطين وخزانة الحجاز، والعامة يسمونها أيلة، وأيلة قد خربت على قرب منه ا...". وربما أن أصح الأقوال، أن خليج العقبة، عرف بخليج أيلة وبخليج الأيلانيين في الكتب الكلاسيكية، نسبة إلى مدينة أيلة

المسماة ايلات Elath و أيلوث Eloth عند العبرانيين . وهكذا ربما أن ايلات الواقعة في فلسطين تحت حكم اليهود وليست مدينة العقبة الأردنية، هي التي تشير إليها الروايات، ويظهر أن أول اتصال جرى بين النبي ﷺ وأهل أيلة كان في غزوة تبوك، إذ جاء عند ابن إسحاق، أنه "لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يُحَنه بن رُوبة، صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ...". أما الواقدي، فقد جاء لديه أن يُحَنه بن رُوبة ملك أيلة، قدم على النبي ﷺ بتبوك ومعه أهل جرباء وأذرح، فأتوه فصالحهم، فقطع عليهم الجزية، جزية معلومة، ووضع على أهل أيلة ثلاثمائة دينار كل سنة، وكانوا ثلاثمائة رجل . وذكر المسعودي أن يُحَنه بن رُوبة صاحب أيلة، كان أسقفًا، وليس ملكًا، وأنه صالح رسول الله ﷺ، على كل حالم دينارًا في السنة.

وجاء في مصدر آخر أن رسول الله ﷺ صالح يُحَنه وكساه بردًا يمانيًا وأمر له بمنزل عند بلال. وذكر البخاري في صحيحه أن يُحَنه ملك أيلة أهدى للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وأن رسول الله ﷺ كساه بردًا، وكتب له بحرهم. ويظهر من رواية ذكرها ابن سعد، أن يُحَنه لم يأت إلى النبي ﷺ ويصالحه إلا بعد أن جاءه كتاب من رسول الله ﷺ شديد اللهجة يدعوه فيه إلى الإسلام أو الجزية.

إن الروايات التي سبق عرضها تختلف فيما بينها بخصوص صاحب أيلة أملكًا هو أم أسقفًا . ولكنها في الوقت نفسه تجمع على أنه سيد أيلة ويبدو كذلك من إحدى الروايات أنه نصراني وليس يهوديًا فقد قال شاهد عيان في وصفه لمقابلة يُحَنه لرسول الله ﷺ قال: "رأيت يُحَنه بن رُوبة يوم أتى به إلى النبي ﷺ ، عليه صليب من ذهب، وهو معقود الناصية...". ومهما كان الأمر فإذا كان يُحَنه بن رُوبة سيد أيلة نصرانيًا فإن ذلك

لا يمنع أن يعيش في مدينته جالية يهودية كما مرّ سابقاً.
وهكذا فقد أصبحت أيلة اعتباراً من السنة التاسعة للهجرة إحدى
مستوطنات شمالي الحجاز الخاضعة لسلطة دولة الرسول ﷺ بالمدينة .
وربما أن خضوعها لسلطة دولة المدينة شجع غيرها من المستوطنات
المجاورة لها باتخاذ الموقف نفسه مثل: أذرح والجرباء ومقنا، التي ستكون
محور المناقشة التالية.

2 - أذرح والجرباء:

"أذرح، اسم بلد في أطراف الشام، من أعمال الشراة في نواحي
البلقاء ... وقيل: بين أذرح والجرباء ميل واحد وأقل لأن الواقف في هذه
ينظر هذه". وحديثاً؛ فإن أذرح والجرباء قريتان في المملكة الأردنية تقعان
شمال غربي معان على قرابة 22 كيلاً، ومن قال بين أذرح والجرباء
ثلاثة أيام فهو خطأ ولعله ثلاثة أميال، وهو الصواب إلى حد ما.
وتحديد المسافة بين القريتين أذرح والجرباء بقريب من ثلاثة أميال
يقطع النزاع لدى بعض المتقدمين من المحدثين إذ جاء عند مسلم عن ابن
عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أمامكم حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين
جرباء وأذرح " قال عبيدالله فسألته،
فقال: قريتين بالشام بينهما ثلاث ليال، وفي حديث بشر : ثلاثة أيام . وفي
حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : "إن أمامكم حوضاً كما بين جرباء
وأذرح. فيه أباريق كنجوم السماء.

وقد علق العسقلاني على ما قيل عن المسافة بين جرباء وأذرح بأنها
مسيرة ثلاثة أيام، فقال : بينهما غلوة سهم، وهما معروفتان بين القدس

والكرك، وقال وثبت القدر المحذوف عند الدارقطني وغيره بلفظ: "ما بين المدينة وجرباء وأذرح...".

ولعل أول اتصال جرى بين النبي ﷺ وأهل أذرح والجرباء كان في سياق غزوة تبوك أي في السنة التاسعة من الهجرة، فقد جاء عند ابن إسحاق قوله: "وأناه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً فهو عندهم.

وجاء عند الواقدي نص الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح، مبيناً فيه مقدار الجزية التي يتوجب عليهم دفعها: "من محمد النبي رسول الله لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم".

وفي رواية أخرى للواقدي قال فيها : نسخت كتاب أذرح وإذا فيه :
"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المحافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه".

يلاحظ أن الكتابين اللذين ذكرهما الواقدي بخصوص أهل أذرح والجرباء لم ترد فيها الإشارة لأهل الجرباء وإنما جاء التأكيد فيهما على أهل أذرح!

ولكن ابن كثير نقل عن ابن إسحاق نص كتاب يقال أن رسول الله ﷺ كتبه لأهل جرباء وأذرح جاء فيه التأكيد على أهل جرباء : "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ لأهل جرباء وأذرح، أنهم

آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأنه عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة، وأن الله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين"٤.

وبمقارنة هذا الكتاب الأخير مع الكتابين اللذين أوردهما الواقدي وسبقت الإشارة إليهما هنا يتبين أنه ليس بين هذه الكتب الثلاثة أي اختلاف جوهري، اللهم إلا أن الكتاب الأخير أي الذي ذكره ابن كثير نقلاً عن ابن إسحاق جاء متضمناً النص على أهل جرباء وزاد على ذلك الإشارة إلى مائة أوقية. ولم يتبين من الكتاب ما ماهية تلك المئة أوقية!

ولعل ما جعل الأمر أكثر التباساً بهذا الخصوص ما ذكره ابن الأثير عن صلح النبي ﷺ لأهل أذرح والجرباء إذ قال : وصالح أهل أذرح على مائة دينار وصالح أهل جرباء على الجزية.

والسؤال هنا لماذا كان الصلح مع أهل أذرح على مائة دينار بينما كان الصلح مع أهل جرباء على الجزية؟ أليس المئة دينار المفروضة على أهل أذرح هي جزية؟ وإذا كان الأمر ليس كذلك فما مقدار الجزية على أهل جرباء؟

وما دام أن أهل جرباء وأذرح يهودٌ فما بال التفرقة بينهما في الجزية؟ ولعل ما يساعد على إزالة هذا اللبس هو ما نقله ابن سعد عن الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب لأهل جرباء وأذرح: "هذا كتاب من محمد النبي لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم.

لذلك يتبين أنه ربما حدث تصحيف لكلمة "وافية" فأصبحت أوقية وليس من المستبعد أن النص الأخير لكتاب رسول الله ﷺ لأهل أذرح

والجرباء هو الأساس وأنه من جراء اختلاف الرواة حصل شيء من اللبس. ويستنتج من فحوى الكتاب الأخير الذي ذكره ابن سعد هو أن أهل أذرب و الجرباء شملهم كتاب واحد فيه الصلح معهم وأن الجزية عليهم مقدرة بمائة دينار. وهذا ربما يعني أنهم كانوا بمجملهم مائة رجل على كل واحد منهم ديناراً واحداً في السنة، كما ظهر ذلك جلياً عند الحديث عن الجزية المفروضة على أهل أيلة.

3 - مقنا:

هي قرب أيلة صالحهم النبي ﷺ على ربع عروكهم .. وعلى أن يجعل منهم ربع كراعهم وخلفتهم. وقال الواقدي: صالحهم على عروكهم - والعروك ألواح يركبونها في البحر - وربع ثمارهم، وكانوا يهوداً . وفي رواية أخرى للواقدي أنهم يهود وأنهم على ساحل البحر.

وقال موسل: "مكناء، Makna هي واحة مقنا المعروفة حالياً بهذا الاسم وتقع على ساحل الخليج المعروف باسم العبقة...".

لا نعلم شيئاً عن اتصال رسول الله ﷺ بأهل مقنا إلا عن طريق رواية ابن سعد، إذ قال : بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى مدينة مقنا فأصابوا منهم سباباً، منهم ضُميرة مولى علي بن أبي طالب فأمر رسول الله ﷺ ببيعهم وهم إخوة فخرج إليهم وهو يبكون، فقال : "ما لهم يبكون ؟" فقالوا: فرقنا بينهم. قال: "لا تفرقوا بينهم بيعوهم جميعاً ". والرواية هنا لا تذكر شيئاً عن أمر تلك السرية ومتى كانت؟ ولماذا؟ ولكن جاء في رواية الواقدي قصة طويلة جاء فيها : "أن عُبيد بن ياسر بن نمير أحد سعد الله ورجل من جذام أحد بني وائل، قدما على رسول الله ﷺ ببثوك فأسلما وأعطاهما رسول الله ﷺ ربع مقنا مما يخرج من البحر ومن الثمر ومن

نخلها ومن الثمر وربع المغزل وكان عُبيد بن ياسر فارساً وكان الجذامي راجلاً، فأعطى رسول الله ﷺ فرس عُبيد بن ياسر مائة ظفيرة، والظفيرة : الحلة فلم يزل يجري ذلك على بني سعد وبني وائل إلى يوم الناس هذا ...".

هذه الرواية الأخيرة تبين بوضوح أن رسول الله ﷺ التقى ببعض الرجال من أهل مقنا في السنة التاسعة للهجرة وأنه أعطاهم ربع مقنا مما يخرج من الثمر ومن البحر وربع المغزل أي "النسيج"!

وإذا كان الأمر كذلك فما القول في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لأهل م قنا : "أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم وربع تجارتهم". فكيف التوفيق بين ما أعطاه رسول الله ﷺ لعُبيد بن ياسر بن نمير وما فرض رسول الله ﷺ عليهم؟

ولدى ابن سعد رواية أخرى يظهر فيها التمييز بين يهود مقنا وأهل مقنا! قال: "قالوا: وكتب رسول الله ﷺ إلى بني جنبه وهم يهود بمقنا وإلى أهل مقنا...".

وفي كتاب رسول الله ﷺ لأهل مقنا تفاصيل لبعض ما فرضه ﷺ عليهم تختلف في كثير منها عما سبق وأن فرضه على بعض البلدان مثل خيبر وفدك أو وادي القرى، قال : "فإن لرسول الله بركم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة إلا ما عفى عنه رسول الله أو رسول رسول الله، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروكم وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد ذلك من كل جزية أو سُخرة ... وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله والسلام". وهكذا وكما هو واضح من هذا الكتاب فإن معاملة أهل مقنا أو يهود مقنا جاءت مختلفة من

حيث ما يتوجب عليهم سنويًا من الإلتزامات تجاه دولة الرسول ﷺ في المدينة إذ يجب عليهم أن يدفعوا سنويًا لحكومة المدينة ربع بعض المحاصيل والمنتجات أي 25% من الناتج المحلي ! وإذا تعذرت الإجابة عن السبب في هذه المعاملة المغايرة لما سبق أن عامل بها الرسول ﷺ بعض بلدان شمال الحجاز، فإن الإشكال يظل قائمًا في تقدير غزل النساء أي ما ينتج منه من نسيج أو لباس وكذلك الأمر بالنسبة للصيد البحري كيف يمكن تقديره والتأكد من صحته؟ وما الآلية التي يتم بها تقدير ذلك؟.

وفي الكتاب كذلك إعفاء أهل مقنا من الجزية وأعمال السخرة، وفي تقديري أن ما فرض عليهم إن صح فهو أكبر بكثير من الجزية ! ثم ماذا عن السخرة؟ لم يسبق لرسول الله ﷺ أن كلف أحدًا أو جماعة من الناس بأعمال سخرة، فما بال الإشارة إليها هنا؟

ويلاحظ كذلك أن النبي ﷺ يتعهد لأهل مقنا بأن لا يكون عليهم إلا أميرٌ منهم أو من أهل رسول الله ﷺ وهذه ميزة لم يحظ بها في تقديري أي بلد آخر. ومن الإشكالات الأخرى في الكتاب زمن كتابته إذ ليس فيه إشارة لوقت تدوينه؟ وليس من المستبعد أنه تم في سياق غزوة تبوك.

ويظل أمر مقنا وما فرض عليه من التزامات وما حظيت به من بعض الامتيازات محل تساؤل في ظل غياب المصادر المناسبة . وغير بعيد عن مقنا تقع مدين.

4 - مدين:

"... قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك ... وهي أكبر من تبوك ... ومدين: هي مدياما Madiama، المحلة القديمة المعروفة باسم مديني وقد وسعها الأنباط، وتعرف الآن باسم البدع . وهي بلدة بين تبوك

والساحل على نحو 132 كيلاً غرب تبوك، وهي في وادٍ بين الجبال
وواديها يُسمى عُفال ...

ليس في أخبار السيرة ما يشير بوضوح إلى العلاقة بين النبي ﷺ
وأهل مدين . ولكن بعض المصادر المتأخرة تقدم بعض المعلوم
المتضاربة عن تلك العلاقة.

فالبكري بعد أن يُعرف بمدين يشير إلى سرية زيد بن حارثة التي كان
حصيلتها بعض السبي من الأطفال والنساء وجاء فيها قوله ﷺ: "لا
تبيعوهم إلا جميعاً".

ويظهر أن الأمر التبس على البكري فوق لديه الخلط بين مدين ومقنا
التي يشير إليها باسم "ميناء". حيث أن سرية زيد كانت إلى مقنا وليس
مدين . وينقل الحميري عن البكري أن يهود مدين يحتفظون بكتاب
يزعمون أن النبي ﷺ كتب لهم، ويظهرونه للناس - حتى الآن- في قطعة
أديم -كتبه علي بن أبي طالب. وهو عند أهل قرية من ساحل مدين، يقال
لها "مسي" وعلى فرض صحة ما جاء عند البكري عن "مدين" إلا أنه لا
يفيدنا عن دخول مدين في طاعة دولة الرسول ﷺ، ومتى كتب لهم رسول
الله ﷺ كتابهم المزعوم؟ وهل كان إسلامهم في غزوة تبوك أم بعد ذلك؟

ويمكن أن يضاف إلى نتائج غزوة تبوك إقرار الأكيدر صاحب دومة
الجنديل بدفع الجزية لدولة الرسول ﷺ، والإنضواء تحت لوائها، وذلك بعد
أن وجه رسول الله ﷺ حملة عسكرية من تبوك إلى دومة الجنديل قوامها
400 فارس، بقيادة خالد بن الوليد، حيث نجحت في أسر الأكيدر
وإحضاره إلى رسول الله ﷺ، حيث أقر بالجزية ودان بالطاعة.

ويظهر أن دومة الجنديل هي الوحيدة من منظومة المستوطنات

الشمالية التي أرسل لها الرسول ﷺ حملة عسكرية، وذلك نظراً لما تمثله من خطورة على أمن الحدود الشمالية لدولة المسلمين بالمدينة.

والروايات التي تعرضت لحملة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل تصرح بأن الأكيدر يدين بالنصرانية، وليس من المستبعد أن يكون بين سكان دومة من يدين بالنصرانية كذلك. والمصادر نفسها التي تحدثت عن هوية الأكيدر الدينية لم تشر إلى وجود جالية يهودية في دومة مما يلقي بظلال من الشك حول وجودهم هناك.

ولعل المسوغ الوحيد الذي دفع بالبحث إلى الإشارة إلى دومة الجندل وصلحها مع رسول الله ﷺ علماً بأنها ليست من شمال الحجاز هو كون ذلك الصلح أحد النتائج المباشرة لغزوة تبوك.

الخلاصة:

إن صلح الحديبية الذي أبرمه رسول الله ﷺ مع قريش لم يكن الهدف منه التفرغ للاستيلاء على خيبر، إذ من المعلوم أن رسول الله ﷺ ذهب في أواخر السنة السادسة من الهجرة إلى مكة قاصداً العمرة، ولكن عندما وقفت قريش في وجهه اضطر لعقد الصلح معهم على أن يعتمر في العام القادم. ولم يكن في بنود الصلح أي إشارة إلى خيبر. وهذا يدحض مزاعم بعض المستشرقين الذين زعموا أن رسول الله ﷺ ذهب إلى الحديبية لعقد الصلح مع قريش حتى يتمكن من غزو خيبر.

وعلى كل، فقد كان من ثمار ذلك الصلح، غزوة خيبر نظراً لما كان يمثله اليهود من خطورة على أمن المسلمين بالمدينة، وكفى شاهداً على ذلك قيامهم بتحزيب الأحزاب وحصار المدينة في السنة الخامسة من الهجرة إذ عُرف ذلك الحدث بغزوة الأحزاب. يضاف إلى ذلك رغبة

الرسول ﷺ بتحري طريق التجارة والمواصلات مع الشام وتخليصه من المخاطر التي كان يمثلها اليهود في خيبر وما والاها.

كذلك فقد كان استيلاء المسلمين على فدك ووادي القرى وتيماء من النتائج المتوقعة للاستيلاء على خيبر . أما الحملات الصغيرة التي بعثها رسول الله ﷺ قبل فتح خيبر إلى فدك ووادي القرى، فلم يكن الهدف منها إخضاع اليهود القاطنين في تلك الأصقاع، بل كانت تهدف إلى تأديب بعض الأعراب الذين حاولوا المساس بهيبة دولة الرسول ﷺ بالمدينة.

وإجمالاً، فإنه يمكن القول أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين صلح الحديبية واستيلاء المسلمين على خيبر وبقية المستوطنات الأخرى التي أُشير إليها آنفاً، ولكن يجب ألا يغاب عن الذهن أن الاستيلاء على خيبر والمستوطنات المصاحبة لها لم يكن نتيجة خطط مبيتة ومدروسة من قبل النبي ﷺ، بل كانت نتائج تلقائية لصلح الحديبية . وبذلك فقد تمكن الرسول ﷺ في خلال هذه المرحلة من الجهاد الاستيلاء على النصف الجنوبي من شمال الحجاز. أما النصف الآخر فقد ارتبط بغزوة تبوك، أي بعد سنتين تقريباً من غزوة خيبر.

ويبدو واضحاً الارتباط بين غزوة تبوك وانضواء أقصى المستوطنات الواقعة في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية، إذ أنه بمجرد وصول النبي ﷺ إلى تبوك التي لم يمكث فيها إلا قرابة عشرين يوماً، حتى سارعت تلك المستوطنات المتمثلة في أيلة وأذرح وجرباء ومقنا إلى الاعتراف بسلطة النبي ﷺ عليها والإقرار له بدفع الجزية، بما في ذلك دومة الجندل التي لا تعد من شمالي الحجاز، ولكن انضوائها تحت سلطة النبي ﷺ كان من النتائج المباشرة لغزوة تبوك . أما مدين فأمر تبعيتها لسلطة النبي ﷺ، ليس واضحاً وذلك على الأقل من حيث التوقيت؛ أي هل

يعدّ دخولها في طاعة دولة الرسول ﷺ من نتائج غزوة تبوك أم كان قبل ذلك؟ علماً بأن المصادر التي تحدثت بإسهاب عن غزوة تبوك وما أسفر عن ذلك من انضمام المستوطنات الشمالية المجاورة لها لم تشر إلى مدين! وإجمالاً فإنه يمكن القول أن غزوة تبوك هي الأخرى لم يكن قد حُطّ لها مسبقاً وأعدت العدة لذلك، وإنما كان الخروج إليها اضطراراً في ظروف بالغة الصعوبة سبقت مناقشتها، حيث كان خروجه عليه الصلاة والسلام دفاعاً عن دولة الإسلام الناشئة؛ أما ما نتج عن ذلك من انضواء تلك المستوطنات الواقعة في شمالي الحجاز، فقد كان من ثمار نجاح النبي ﷺ في الوصول إلى تبوك، وإظهار قوة الدولة الفتية مما دفعها إلى الاعتراف بنفوذ النبي ﷺ والتسليم بسلطته والإقرار بدفع الجزية. "وبعبارة أخرى فإن المعاهدات التي أبرمها رسول الله ﷺ مع أهل دومة الجندل وأيلة ومقنا وأذرح والجرباء، تعد أكبر إنجاز للمسلمين في تاريخ الصراع بينهم وبين الروم في حياة الرسول ﷺ. إذ أن ذلك قد ضمن ولاء التجمعات الدائرة في فلك الروم وتحييدها في ذلك الصراع الدائر بين المسلمين وبينهم"°، أما ما يتعلق بالهوية الدينية لسكان تلك المستوطنات، فيبدو أنها ليست ذات ديانة يهودية بالمطلق، إذ تشاركها جماعات عربية أخرى ذات معتقدات دينية مختلفة. وفي هذا السياق لا بد كذلك من الإشارة إلى الشكوك حول أصول تلك الجماعات ذات الديانة اليهودية. إذ أنه ليس من المؤكد أنها تعود إلى أصول إسرائيلية خالصة وليس من المستبعد كذلك أنها أو بعضها على الأقل قبائل عربية متهودة.

على كل، فإنه بسبب غياب المعلومات التاريخية المناسبة فإن هذه الشكوك تظل دون إجابة مقنعة.

هذا ما أدى إليه الاجتهاد والله أعلم بالصواب..

